شعر الحِكْمة بين الجاهليّة والإسلام

شعراء الطائف أنموذجًا

أ.م.د. ختام سعيد سلمان
جامعة بيرزيت/ دائرة اللغة العربية/ فلسطين

الملخّص:

الحكمة هي نظرات تأمليّة في الحياة وقضاياها، والناس وأخلاقهم، وغاياتهم ومصائرهم، وهي نداءٌ لكشف الحقيقة، وتقديم الصورة النموذجية لقيم الحقّ والخير والجمال، وأخذ العبرة، وقد تناول الشعراء منذ الجاهلية هذه المعاني الإنسانية، وكان العرب يُكبرون الشاعر الحكيم، وقيل: "إنّ العرب كانت لا تعدّ شاعراً فحلاً حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره "(١). غير أنّ النَظْم في الحكمة لم يكن غرضاً مستقلّاً، كما هو الحال في أغراض المديح، والرثاء، والهجاء، والغزل وغيرها، فكانت أبيات الحكمة تأتي بصورةٍ عارضةٍ تستدعيها طبيعة الموضوع، وهذا يعني أنّ الحديث عن الحكمة في الشعر يحتاج إلى بحثٍ وتنقيب؛ كتنقيب الشحيح الذي ذكره أبو نوّاس:

بُليتُ بَلى الأطلالِ إنْ لمْ أقفْ بِها وقوفَ شحيحٍ ضاعَ في التُرْبِ خاتِمُهُ

ومع مجيء الإسلام، استمرّ الشعراء يُزيّنون قصائدهم بالمعاني الحكيمة، وكان للإسلام أثرٌ ظاهرٌ في المعاني التي تناولها الشعراء، وفي توظيف الشعر لمحاربة الأيديولوجية الجاهلية، وخدمة الدين الإسلامي، وقد بَقيتْ هذه الحكم خالدةً؛ لأنّ الشاعر الحكيم إنسانٌ تجاوز الخاص إلى العام، فكرّمه الناس بأنْ حفظوا أشعاره وتناقلوها جيلاً بعد جيل.

المقدمة :

قال تعالى: ﴿**يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاء وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا**﴾ البقرة: ٢٦٩. كانت الطائف إحدى القرى العربية الخمس التي ذكرها ابن سلام الجمحي، وهي المدينة، ومكة، والطائف، واليمامة، والبحرين، ونصّ على تفاوت الشعر فيها بأن "المدينة أشعُرهن قريةً "(٢)، وقال أبو عبيدة معمر بن المثنى أيضاً :"إن أشعر أهل المدن أهل يثرب، ثم عبد القيس ثم ثقيف، وأشعرهم أمية بن أبي الصلت... "(٣). وتبعًا لتصنيف أبي عبيدة؛ فإنّ البحرين تحتل المرتبة الثانية، أمّا الطائف؛ فتحتل المرتبة الثالثة، وهذا ما أكّده ابن سلام في قوله: "وبالطائف شعر وليس بالكثير"(٤).

إنَّ نصيب الحواضر من الشعر قليل مقارنةً بالبوادي، والتفتَ إلى هذا الأمر الجاحظ أيضا، فذكر بني حنيفة سكان اليمامة، معلقّاً: " لم نرَ قبيلة قط أقل شعراً منهم، وفي إخوتهم عِجْل قصيد ورجز وشعراء ورجازّون "(٥)، وحين

ذكر الطائف قال: "وثقيف أهل دار ناهيك بها خصباً وطيباً، وهم – وإن كان شعرهم أقلّ – فإنَّ ذلك يدلُّ على طبعٍ في الشعر عجيب"(٦).

وبعيداً عن الأسباب والنتائج فإنَّ مدينة الطائف كانت قليلة الشعر، ولم تُعرف بشاعر بارز يُقارن بالشعراء الفحول، أو بشاعر مُفلِق يأتي بالفلق أي العجب، باستثناء أميّة بن أبي الصلت الذي قال عنه الكُميت بن زيد:" أميّة أشعر الناس قال كما قلنا، ولم نقل كما قال "(٧).

ونصّ معظم الذين ذكروا شعراء ثقيف على أنهم مُقّلون، ومثال ذلك ما قيل عن أبي محجن الثقفي: "إنه من المُقِّلين في الشعر، ولذلك لم يصنع له من عُنوا بصنعة دواوين المُكثرين والمشهورين من شعراء الجاهلية والإسلام ديواناً، وهم أبو سعيد السُكري، ويعقوب بن السّكيت، وأبو الحسن الطوسيّ(٨).

كما أنَّ الآمدي (٣٧٠ هـ) ذكر في كتابه" المؤتلف والمختلف " ستين ديواناً من دواوين القبائل تحت اسم كتاب أو أشعار، مثال ذلك: كتاب الأزد ، أو أشعار حمير، أو شعر بني يشكر، ولم يذكر مثل ذلك لثقيف. وذكر ابن النديم (٣٨٥ هـ) في كتابه "الفهرست" ثمانية وعشرين ديواناً من دواوين القبائل، دون أن يشير إلى ديوان شعر ثقيف. وهذا الكلام يتناقض مع ما ذكره أبو الفرج الأصفهاني في ترجمته لحماد الراوية (١٥٦ هـ)، أنه قال:" أرسل الوليد بن يزيد إليّ بمائتي دينار، وأمر يوسف بن عمر بحَملي إليه على البريد. قال (حماد): فقلت لا يسألني إلا عن طَرفيه قريش وثقيف، فنظرت في كتابَيْ قريش وثقيف... "(٩).

كان الشعر في الطائف قليلاً من حيث الكم، أما من حيث القيمة والجودة؛ فكان ذلك القليل – على رأي الجاحظ – يدلُّ على طبع في الشعر عجيب(١٠). فهو ينمُّ عن موهبةٍ سمحةٍ، وتلقائيةٍ صادقةٍ بعيدةٍ عن التكلف، انعكست في إشادة العامة والخاصة بشعرهم، وتفضيلهم لبعضه على سواه من الشعر، مثال ذلك ما قاله الأصمعيّ:" قال أبو عمرو بن العلاء: أفصح الشعراء لساناً وأعذبهم أهل السَروات، وهنّ ثلاث: وهي الجبال المطلة على تهامة مما يلي اليمن، فأولها هذيل... ثم بجيلة في السراة الوسطى، وقد شركتهم ثقيف في ناحيةٍ منها، ثم سراة الأزد أزد شنوءة، وهم بنو الحارث بن كعب "(١١).

ومن أشهر شعراء الطائف الذين شملهم هذا البحث:

- من المخضرمين: أراكة الثقفي، وأميّة بن أبي الصلت الثقفي، وغيلان بن سَلمة الثقفي، وأبو مِحجن الثقفيّ، وغيرهم .
- ومن العصر الأموي: طُرَيح بن إسماعيل الثقفي، ومحمد بن عبد الله النُميري، ويزيد بن الحكم الثقفيّ، وآخرون.

وقد خاض شعراء الطائف في الأغراض التقليدية المعروفة آنذاك بنسب متباينة، فازدهرت عندهم أغراض غلبت على شعرهم، وضعفت أو غابت أغراض أخرى، فنظموا في الفخر والحماسة، والمدح، والهجاء، والغزل، تخلّل ذلك أبياتٌ من الحكمة والموعظة، وقد اختار هذا البحث الحديث عن شعر الحكمة؛ لأنه يعكس نزعتهم الإنسانية، وحاجاتهم النفسية، حالهم في ذلك حال غيرهم من البشر.

اعتمد البحث على المنهج التحليليّ النقديّ؛ لسبر أعماق الشعر الحكميّ، واستكشاف ما فيه من نظرات كونية: تأملية وفلسفية. وهو يتكون من مدخل، يشتمل على تعريف لكلمة "الحكمة" لغة واصطلاحاً، ثم دراسة النصوص الشعرية في محورين، أحدهما : المحور التأمّلي الوجودي، وميدانه نظرات في الحياة والموت. امّا الآخر: فهو المحور الإصلاحي التهذيبي، ومجاله منظومة القيم الأخلاقية المجتمعية، ثم الختام بمستخلص البحث ونتائجه.

شعر الحكمة والموعظة :

خاض القدماء في الحديث عن موضوعات الشعر وأغراضه، وحاولوا تصنيفه على هذا الأساس، ولهم فيه أقوال كثيرة منها:" إنَّ الشعر أربعة أصناف؛ فشعر خير كله، وذلك ما كان في باب الزهد والمواعظ الحسنة. والمثل العائد على من تَمثل به بالخير، وما أشبه ذلك. وشعر هو ظرف كلّه، وذلك القول في الأوصاف والتشبيه، وشعر هو شرّ كلّه وذلك هو الهجاء... وشعر يتكسب به "([١٢]).

إن الجدولة السابقة لموضوعات الشعر تركّز في المضمون، وتطرح مصطلحات خلافية كالخير والشرّ، فما هو حدّ الخير المطلق؟ وما هو حدّ

الشرّ المطلق؟ والمجال هنا لا يسمح بالتنظير، بل يَكتفي بالمعنى العام المتداول عند عامة الناس. فالخير – في عُرفهم – هو المفيد، والشرّ هو الضارّ، أو المُنطوي على أذى بشكل من الأشكال. وما يهمنّا في المقولة أنها وصفت الشعر الحكميّ بأنَّه خير كله، ثم تحدثت عن موضوعات الحكمة، وهي الزهد، والموعظة والأمثال، وغيرها من القضايا التي ترتقي بقارئها إلى عالم مثاليّ يتخيله، ويتمنى أن يتحقق على أرض الواقع، " كما تخيّل المفكرون منذ القدم مدناً فاضلة تخلو من الشرّ والفساد، ويسودها الخير الكامل الذي لا يعكرّه شر ولا فساد "([١٣]).

وحاول فؤاد البستانيّ حصر مجالات الحكمة، فأخرج منها غرض الزهد الذي يدعو إلى التفرغ للتبتّل والعبادة، والزهد في الحياة الدنيا ومتاعها الزائل والحثّ على التقوى والعمل الصالح، انتظاراً لما عند الله من النعيم السرمدي الذي لا يزول، وانسجاماً مع قوله تعالى: ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ القصص:٧٧. كما استبعد الشعر التعليمي الذي عرف في العصور اللاحقة، وقد استحدثه العباسيون ودفع إليه رقيّ الحياة العقلية، وهو الذي يقوم فيه المعلم أو الحكيم بنظم قواعد فن من الفنون أو علم من العلوم، حتى يسهل حفظها على الجمهور، كما فعل ابن مالك حين نظم النحو([١٤]):

كلامُنا لفظٌ مفيد كاستقمْ واسمٌ وفعل ثم حرفٌ الكلمْ

أو ناظم الطب حين يقول:

وكلُ شيءٍ بات في الملح رَدي من لبنٍ أو سمكٍ مقدّدِ

إنَّ الحديث عن الحكمة يستدعي تحديد دلالة الكلمة لغة واصطلاحاً، وقد جاء في المعجمات([١٥]): الحكمة هي معرفة أفضل الأشياء بأفضل العلوم. ويقال لِمن يحسن دقائق الأشياء ويتقنها حكيم. وجاء في الحديث النبوي الشريف: "إن من البيان لسحراً، وإن من الشعر لحكمة (لحُكماً)" ومعناه إن في الشعر كلاماً يمنع من الجهل والسفه وينهى عنهما. وقيل: بل أراد بهما المواعظ والأمثال التي ينتفع بها الناس، وتأتي لفظة الحكمة بمعنى العِلة في قولنا: ما الحكمة في ذلك؟

والحكمة في الاصطلاح: هي الكلام الذي يقلّ لفظه، ويجلّ معناه. فالحكمة هي الإيجاز، وهي الكلام الذي قلّ ودل، وتُشبه قول القائل([١٦]):

أقول بيتاً واحداً أكتفي بذكره من دون أبياتِ

وعرّفها كارل بروكلمان بأنَّها " فن التأثير بالكلام المتخيّر، الحسن الصياغة والتأليف، في أفكار الناس وعزائمهم "([١٧]). ووصفها بطرس البستاني "بأنها العبارات الأدبية التي هي بمنزلة برهان وحجة قطعية لا تحتمل الردّ، وقد يقال لها الكلام الجامع، ومنها أمثال سليمان وكل ما كان من قبيلها، من القواعد الأدبية، وسفر الحكمة هو سفرٌ منسوب إلى سليمان الملك "([١٨]).

والحكمة: نظرات تأملية في الحياة وقضاياها، والناس وأخلاقهم، وفي الماضين ومصائرهم، وفي سعي الإنسان وغايته ونهايته. وهي نداء لكشف الحقيقة، وتقديم الصورة المثالية النموذجية لقيم الحق والخير والجمال، وتقديم الموعظة والنصح والإرشاد. وكانت حكم العرب صادرة عن رجاحة العقل، وتجارب الأيام. " وهي حِكم لا تجري على مذهب، ولا تدور علىِ نحلة، ولا يبلغ بها الزمن مبلغ أحد هذين النوعين بالقياس والاستنباط، كما يكون ذلك في القضايا العلمية...وإنما كان أساس تلك الحكمة رسوخ الأخلاق فيهم بحكم العادة، ونظر كل إنسان إلى نفسه بحكم الطبيعة "([١٩]). وهي تصدر عن فطنة ونظر ثاقب، وخبرة حياتية واسعة، مما جعلها في النهاية تتضمن حُكماً مسلّماً به في أمر بخير، أو نهي عن شر([٢٠])، وتُؤثر في الناس وتوّجه مسيرتهم.

وقد نظم معظم الشعراء في المعاني الحِكمية، وضرب الأمثال السائرة، وكان العرب في الجاهلية يقدرّون الشاعر الحكيم، ومن طريف ما ذُكر" أنَّ العرب كانت لا تعدّ الشاعر فحلاً حتى يأتي ببعض الحكمة في شعره "([٢١]). فالحكمة حِلية في جيد القصيدة تحبّب الناس بها، وتقربها من قلوبهم. والشعر الجيد هو ما اشتمل على المثل السائر والأحكام العامة. ويروى أن عمر بن الخطاب(رضي الله عنه) كان شديد الإعجاب بزهير بن أبي سلمى، ويرى أنه شاعر الشعراء، لحسن معرفته ودقة حكمه، وكان يقول: لو أدركته لوليته القضاء؛ لأنّ الشاعر استوفى في قوله الطرق الثلاث لإظهار الحق ، وهي: القسم على من أنكر، أو المنافرة وهي اللجوء إلى حكَم يَتبيّن حُجج الخصوم ، ثم يحكم بينهم، أو الجلاء أي ظهور الحقيقة، وذلك قوله([٢٢]):

فإنّ الحقَ مقطعُه ثلاثٌ يمينٌ أو نفارٌ أو جلاءُ

غير أنَّ النظم في الحكمة لم يكن غرضاً شعرياً مستقلاً، وإذا استثنينا شاعر الطائف الكبير أمية بن أبي الصلت، فإنه لم يكن من أهداف أي شاعر أن ينظم قصيدة كاملة في توجيه النصائح والإرشادات، واستخلاص المعاني والعبر التي ينتفع بها الناس في كل زمان ومكان، وكانت أبيات الحكمة تأتي في ثنايا الموضوعات المتنوعة لتقوم دليلاً ساطعاً على الأبعاد الفكرية التي يتبناها الشاعر، وتكون بمثابة الختام الحسن المُشعر بالنهاية الطبيعية الحاسمة.

ومن وَلع العرب بالحكمة أنها كانت كثيرة في النثر، وكان لكل قبيلة حكيم تفزع إليه في الملمات، وربما كان الشكل الفني للنثر أنسب وأكثر طواعية من شكل الشعر المقيد بالوزن والقافية. وكان قُس بن ساعدة الإيادي، وأكثم بن صيفي، وعامر بن الظرب العدواني يقفون في الأسواق يعظون الناس، وكانت خطبهم تشتمل على الكثير من الأقوال البليغة الحكيمة التي شاعت بين الناس، وتناقلتها الألسنة حتى حملت اسم المثل.

موضوعات الحكمة: أمّا موضوعات الحكمة؛ فيمكن توزيعها على محورين أساسين:

- **المحور الحِكميّ التأمّليّ :**

شغلت قضايا الوجود والحياة والموت اهتمام العربيّ منذ القدم، وكانت من الأمور التي أدهشته، وأثارت تساؤلاته، وأطلقت كلام الحكمة على لسانه، فالحياة مهددّة بالموت، والمنايا تقف للناس بالمرصاد، وكان الحديث عن الموت يغلفّ قلوبهم بكثير من السوداوية والمأساوية، ويُلهمهم المزيد من الحكم، ولاسيما في غرض الرثاء الذي كان بحاجة ماسة إلى عقل مفكر؛ يكبح جماح العواطف المتأجّجة، ويرضى بقضاء الله وقدره، ويرى أنَّ الجميع سيلاقي المصير نفسه، و لكل شيء نهاية، وهذه هي إرادة الله، يقول غَيلان بن سَلمة([٢٣]):

لو استطيعُ جعلتُ مني عامراً بين الضلوعِ وكلُ حيٍّ فانـي

وردّد أمية بن أبي الصلت([٢٤]) معنى مشابهاً حول حتمية الموت، وأنه النهاية الطبيعية، التي تنتظر الإنسان وإن امتدّ به العمر.

كلُ عيشٍ وإن تطاول دهراً قصدُه مرةً إلى أنْ يزولا

أمّا أبو مِحجن الثقفيّ؛ فقدّم الفكرة نفسها في إطار جديد، فهو مع تسليمه بحتمية الموت يحاول أن يقدّم تفسيرا لوقوعه؛ رغبة منه في التخفيف من هوله، يقول([٢٥]):

ألم تَرَ أن الدهرَ يعثرُ بالفتى ولا يستطيعُ المرءُ صرفَ المقادرِ

فأبو محجن وهو الشاعر المخضرم، ما زال يتبنى فكرة دينية كانت عند العرب قبل الإسلام، تتعلق بالنظرة إلى الزمن، حيث ظنّوا أن الزمان قوة قاهرة تهيمن على الحياة وتهلك الناس، وقد ورد ذكر ذلك في القرآن الكريم: ﴿**وَقَالُوا مَا هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا يُهْلِكُنَا إِلاَّ الدَّهْرُ وَمَا لَهُم بِذَلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلاَّ يَظُنُّونَ**﴾ الجاثية: ٢٤.

وكانوا يعادون الزمان ويسبّونه، وقد نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سبّ الدهر فقال:" لا تسبّوا الدهر فإن الله قال أنا الدهر، الأيام والليالي لي أجدّدها وأبليها، وآتي بملوك بعد ملوك "([٢٦]).

وظلَّ الشعراء المسلمون يعتقدون أنَّ الزمن قوة غامضة تصيب الإنسان، ولا ينجو أحد من الأيام؛ لأنها متمكّنة منهم كتمكّن القدر، والكائنات الحيّة بكل تصانيفها عاجزة عن مقارعة الدهر، ويتوجب على الجميع أن يسلّموا بهذه الحقيقة، وأن يتعاملوا معها بهدوء وصبر، فكل شيء إلى زوال، ولا يبقى إلا وجه الله والعمل الصالح، قال طُريح بن إسماعيل الثقفيّ([٢٧]):

والدهرُ ليس بناجٍ من دوائرِهِ حيّ جبانٌ ولا مستأسدٌ بطلُ

ولا دَفينُ غَياباتٍ لـه نفقٌ تحت التراب ولا حوتٌ ولا وعلُ

بل كل شيءٍ سيُبلي الدهرُ جدّتَه حتى يبيدَ ويبقى اللهُ والعملُ

في أبيات طريح إضافة نوعية، جاءت في الشطر الأخير (ويبقى الله والعمل)، حيث وظّف النظرة الإسلامية للموت، الواردة في قوله تعالى: ﴿**كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ**﴾ ﴿**وَيَبْقَى وَجْهُ رَبِّكَ ذُو**

الْجَلالِ وَالإِكْرَامِ﴾ الرحمن: ٢٦، ٢٧. فجاء هذا المقطع كأنه نظم مباشر لألفاظ القران الكريم ومعانيه، بشكل واعٍ ومقصود، استهدف المضمون واللغة في المرجعيات/ الآيات القرآنية.

فقد أدرك الشعراء عبثية البكاء وعجز الإنسان عن دفع الموت، " فهو قوة تدميرية نرى ملامحها في اقتناص الآخرين من حولنا، وفي كل اقتناص يفجعنا الموت به؛ تستيقظ داخل الأنا مشاعر الخوف على الحياة، وفي الوقت ذاته الإشفاق على الآخرين، ولاسيما من تُؤَمل الذات فيهم امتداداً لحياتها"([٢٨]).

فهذا أراكة الثقفيّ فَقد ابنه، فجزع عليه أخوه جزعاً شديداً، فما كان من الأب إلاّ أن تماسك، و حاول أن يحتفظ بشيء من ضبط النفس الظاهري، ويتكلّف حالة من التصالح العقلي مع الموت؛ كي لا يفقد الابن الثاني، فالشاعر هنا يجمع بين عاطفتي الحب والحزن: الحزن على الميّت، والحب والخوف على الحيّ، فيتوجه إلى ابنه باللوم مشفقاً عليه من التمادي في الحزن، ويأتي صوت العذل/ اللوم هنا من الأنا المأزومة، فيحاول الشاعر أن يخفف من المأساة باستخدام الحكمة ذات النزعة الإنسانية، ويرى أوجست كونت "أن الإنسانية كائن واحد يتصف بالخلود، ولا يكون هذا إلا إذا اندمج الأفراد اندماجاً عقلياً وخُلقياً، وبالتالي فإنّ على هؤلاء الأفراد أن يكونوا قد استطاعوا إخضاع الوظائف العضوية للوظائف العليا، فيتفوق العقل على الغريزة، والغَيرية على الأنانية "([٢٩])، يقول أراكة بن عبد الله الثقفيّ([٣٠]):

وقلتُ لعبدِ اللِه إذ حَنّ باكياً تعزّ، وماءُ العينِ منهمرٌ يجري

تبيّنْ فإن كان البكا ردّ هالكاً على أهلِه فاشددْ بكاك على عمرو

ويلتحم الوعظ عندهم والتجلّد أحياناً بالقصص المستوحاة من الأمم الخالية، التي تدعم الفكرة نفسها (لا بؤس يدوم ولا نعيم)، كقول يزيد بن الحكم الثقفيّ([٣١]):

ما بخلُ من هو للمنو نِ وريبِها غرضٌ رجيمُ

ويرى القرونَ أمامه همدوا كما همدَ الهشيمُ

وتخربُ الدنيا فلا بؤسٌ يدومُ ولا نعيمُ

والقــارئ لحكمهــم بعــد الإســلام يجــد أنهــا لا تفتــرق عــن حكــم الجــاهليين، وكــان المُتوقــع مــنهم أن يكثــروا مــن المعــاني الدينيــة التــي تخفّــف صــدمتهم، وتمـنحهم الإيمـان القـويّ، فـالموت فـي نظـر الإسـلام هـو انتقـال مـن حيـاة فانيـة إلـى حيــاة أبديــة، وأن الــدنيا دار ممــرّ، وليســت دار مقــرّ، وأن البقــاء لله وحــده، فـالمؤمن الحكـيم يـنهج نهجـا يكسـب بـه النـاس ويُـؤثر فـيهم، قـال تعـالى: ﴿**ادْعُ إِلَـى سَـبِيلِ رَبِّـكَ بِالْحِكْمَـةِ وَالْمَوْعِظَـةِ الْحَسَـنَةِ**﴾ النحـل: ١٢٥، وهـذا مـا فعلـه الحجّـاج بن يوسف الثقفي معزّياً نفسه(٣٢):

حسبي ثوابُ اللهِ من كل ميّتٍ وحسبي بقاءُ اللهِ من كل هــالكِ

إذا ما لقيتُ اللهَ عني راضيـاً فإن شفاءَ النفس فـيما هنـالكِ

- **المحور الحِكميّ الأخلاقيّ:**

يُظهِر هذا المحور رسالة الشعر، والوظيفة المنوطة بالشاعر، وهي الارتفاع عن الواقع والسموّ بالنفس عمّا هم موجود، وإمكانية تحويل الحلم إلى حقيقة، فقد قام بعض الشعراء بدور المصلح الاجتماعي؛ الذي يحّث الناس على الفضيلة، وينهاهم عن الأفعال الدنيئة الذميمة، إذ حَملت لنا الأشعار أيضاً حِكماً كثيرة تتصل بالقيم التربوية المثالية؛ التي تتحدث عن أخلاق الناس وطباعهم، وكان الهدف منها حثّ الناس على الفضيلة، وصدّهم عن الرذيلة والعادات السيئة، فرسم شعراء الحكمة مجتمعاً مثالياً تسوده منظومة من القيم الأخلاقية السمحة، مثل: المحبة، والتسامح، والتعاون، والعدل، والرحمة...، وتختفي منه مشاعر الحقد، والحسد، والكراهية، والانتقام، والظلم...، ومن خير ما يُمثل ذلك تلك القصيدة التي نظمها يزيد بن الحكم الثقفي، في تأديب ابنه بدر، ومعلوم أن التأديب يتمّ في زمن الحَداثة والصغر؛ " لأنَّ المرء يكون مرنَ الطبيعة، قابلاً للتهذيب، وأما الشيخ فلا؛ لأنه يخسر المرونة والقابلية لتلقي الجديد "(٣٣). وهي منظومة تربوية إنسانية صدرت عن إنسان حكيم. "والإنسانية هي قوة تتصل بالفعل الإنساني الصادر عن الذات الخيّرة الصافية، التي تهدف في كل أعمالها إلى خير الإنسانية وسعادتها، وإلى إصلاح الجنس البشري سعياً وراء الكمال... ووصولاً إلى حقيقة الإنسان المطلقة البعيدة عن كل الشوائب "(٣٤). يقول:

دمْ للخليلِ بــــــودّهِ مــا خيرُ ودٍ لا يــــدومُ

واعرفْ لجارك حقّـــهُ والحقّ يعرفُه الكريـــــمُ

واعلمْ بأنّ الضيفَ يـو ماً سوف يَحمدُ أو يلومُ

هذه الأبيات تتحدث عن الأخلاق الحميدة التي تُعدّ أساساً متيناً للبناء الاجتماعيّ والاقتصاديّ مثل: الصداقة، وترى أنّ من أهم شروطها المودّة المتبادلة بشكل دائم، وأن الذي لا دوام لِودّه لا خير فيه. أما الإشارة الثانية ليحلّ الوئام بين الناس: فَتكمن في رعاية حق الجار وأدائه، ويُؤكد على التمسّك بهذه الخصلة من خلال قوله: (والحق يعرفه الكريم) فهذا الكلام يجري مجرى المثل، أي إنَّه صادق، كما أن معرفة حقّ الآخر وما علينا لغيرنا هي من صفات الكرام. أما الإشارة الثالثة؛ فتظهر في إكرام الضيف والإحسان إليه، لأنك إن أحسنت إليه مدحك، وإن أهملته وقصرّت في حقّه جلب لك ذمّاً.

ويحلّل طبائع الناس وأخلاقهم، فهم ليسوا سواء، ويقسّمهم مجموعتين: مجموعة تُحمد أفعالها، وأخرى تُذمّ.

والناس مبتنيان محـ مـودُ البنـايةِ أو ذميمُ

ويستطرد الشاعر في تقديم النصائح والتعليمات التي ينبغي أن يَتأدّب بها الإنسان، والتحذير من بعض التصرفات لما يترتب عليها من عواقب وخيمة مثل: النظر في نتائج الأمور قبل البدء بها، فالأشياء الكبيرة تبدأ صغيرة. ثم عدم المبادرة إلى العدوان، لأن القاتل يُقتل ولو بعد حين، وعدم ظلم الناس، إذ لا بدّ للمظلوم أن يطالب بحقّه وبرفع الظلم عنه.

إنَّ الأمـورَ دقيقُـهـا مما يهيجُ لـه العـظيمُ

والتّبلُ مثلُ الدينِ تقـ ـضاه وقد يلوي الغريمُ(٣٥)

والبغيُ يصرعُ أهـلَه والظلمُ مرتعُه وخيمُ

وقد تضافرت البنية اللغوية المتنوعة بين وسائل الترغيب والترهيب في الأبيات السابقة؛ على تقديم الدلالات الفكرية التهذيبية التي توخّاها الشاعر، فجاءت حكمهم حقائق مجرّدة، تغلب عليها الأساليب التعبيرية المباشرة، إذ بدأ الخطاب بأسلوب الأمر(الترغيب)/افعل (دُمْ، اعرف، اعلم)، ثم انتقل إلى الأسلوب الخبري القائم على طرح حقائق ومعلومات يقينية، تحمل في ثناياها أسلوب النهي المقابل لأسلوب الأمر في القسم الأول. وكأنه يقول له: لا تفعل/لا تقتل/لا تظلم/لا تسرق. وقائمة الأوامر والنواهي (الثنائيات الضدية)

تقترب من المعاني الدينية في دلالاتها العامة، لكنها لا تحمل أي اقتباس أو استلهام مباشر للآيات القرآنية، فالشاعر_ على الرغم من إسلامه_ إلا أنه لم يُشر إلى دور الدين في التهذيب بصفته خير مُقوّم للأخلاق، لما فيه من الأوامر والنواهي الإصلاحية. وظل ينهل من خبرته وتجاربه في صياغة حكمه، دون أن يختلف في شيء عن أسلافه الجاهليين. ورأى أن الوازع الأدبي هو الأساس في اكتساب الأخلاق الحميدة، فالإنسان إذا رُبيَ على احترام نفسه، وعَلم أنه بها يحتل مكانة محترمة؛ كان ذلك وازعاً فعّالاً في لزوم الفضيلة وتجنّب الرذيلة، وأمام هذه الأخلاقيات الإنسانية البعيدة عن الأنانية، وقف بعض الشعراء محذّراً من أقرب الناس، ويوحي هذا التحذير مجدّداً بالعلاقة التلاحمية بين الحكمة والتجربة الشخصية، فهذا طبيب العرب المشهور، الحارث بن كَلدة الثقفي، وكان شاعراً ذا حكمة، يحذّر من الأقارب، وعدم تكاتفهم في الشدائد مع أبناء قبيلتهم، أما مع الأغراب فلهم مواقف حميدة تُذكر لهم. يقول الحارث بن كَلدة([٣٦]):

تبغّ ابنَ عمِ الصدقِ حيث وجدتَه فإنّ ابنَ عمِ السوء أوعرُ جانبُهْ

تبغيتُه حتى إذا ما وجدتُه أراني نهارَ الصيفِ تجري كواكبُهْ

وفي الناس مَن يغشى الأباعدَ نفعُه ويشقى به حتى المماتِ أقاربُهْ

فإنْ يكُ خيراً فالبعيدُ ينالُه وإن يك شراً فابنُ عمِك صاحبُهْ

يبدو هذا الكلام غريباً في زمن كانت تسود فيه الروح القبلية " فكان الفرد بحاجة إلى الجماعة، وطرح الهموم التي تُمثل الكل وليس الفرد، ولم يعد للنظرة الجزئية أو المعاني المحدودة كبير شان، إذا قيست بتلك التي تتصل بالمجموع الذي يتخطى الحدود الجغرافية والعِرقية "([٣٧]).

وتكشف الأبيات عن تجربة قاسية عاشها الشاعر مع بعض أقاربه، دفعت به –عن وعي تام– إلى تقديم النصح للآخرين بعدم الثقة بأحد. وتحدّث بعض الشعراء في حِكمهم عن آفات أخرى كانت سائدة في المجتمع وهي النزعة المادية، فكانت قيمة الإنسان – من وجهة نظرهم – مرهونة بما لديه من المال. يقول يزيد بن الحكم الثقفيّ:

والمرءُ يُكْرمُ للغنى ويهانُ للعدم العديمُ

وكان العرب متفاوتين في الغنى والفقر، لكن دائرة الفقر كانت أوسع، واقترن الفقر عندهم بالجوع، لكنّه لم يفقدهم الكرامة وعزة النفس، فالمال غادٍ ورائح، وكان الفقر وقلة موارد الرزق؛ من الأسباب التي أدت إلى اقتتالهم في كثير من أيام العرب. ودعا الشعراء في حِكمهم إلى كتمان السرّ، وعدم البوح به، وإذا اضطرّ المرء فليكن لإنسان ناصح كتوم. يقول المُغيرة بن شُعبة([٣٨]):

إنما موضعُ سرِ المرءِ إنْ باح بالسرِ أخوه المنتصحْ

فإذا بحتَ بسرٍّ فإلى ناصحٍ يكتمُه أولا تبحْ

هذا النهج الوعظيّ الذي شاع في غرض الحكمة؛ يجسّد وظيفة الشعر في النقد القديم،" فالشاعر حكيم، والشعر مستودع الحكمة، وكتاب التربية، يُصلح النفس ويُهذّبها، ويربيّها على القيم الفاضلة، والأخلاق الحميدة، ويزجرها في الوقت نفسه عن الأفعال الدنيئة، فتشبّ النفس على الفضيلة "([٣٩]).

وكان الوعظ عندهم يلتحم أحياناً بالقصص التي تدعو الناس إلى فكرة معينة، ومن أهم الشعراء الذين استعانوا بالأسلوب القصصي؛ أمية بن أبي الصلت الثقفي الذي هجر عبادة الأوثان وطلب الدين، فقرأ الكتب المقدسة، وتأثّر بأهل الكتاب من رهبان النصارى وأحبار اليهود، وذكر جورجي زيدان" أنَّ البعض ظن أنه مسيحي لكثرة ارتياده للكنائس ومجالس الرهبان "([٤٠]). وكرّس غالبية شعره للوعظ والإرشاد، وتضمّن شعره الكثير من القصص الدينية كقصص الرسل والأنبياء، بدءاً بأبي البرية آدم ومرورا بنوح ولوط، وإبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، والقصص التاريخية التي تحمل أخبار الأمم الخالية والشعوب الغابرة ، ولم يكن قصده نقل الحدث التاريخي بل اخذ العبرة. ومن يقرأ أشعاره يعتقد أنه داعية إسلامي كبير، وأنه يفعل ذلك من منظور ديني خالص، امتثالا لقوله تعالى: ﴿**فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ الأعراف:١٧٦. و﴿**لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِّأُولِي الأَلْبَابِ**﴾ يوسف:١١١، مع أن الحقيقة التي لا مراء فيها أن أمية مات مشركاً.

وقد تنبّه القدماء على وفرة المعاني الدينية في شعره، فقال ابن سلام: "إنه كان يذكر في شعره خلق السموات والأرض والملائكة، ما لم يذكره احد من

الشعراء "([41]). واتخذ الوعظ عند أمية اتجاهاً جديداً في الشعر فكان يدعو الناس إلى الإيمان بالله الواحد الأحد، ونبذ عبادة الأرباب الذين لا يملكون نفعاً ولا ضراً. يقول([42]):

رضيتُ بك اللهمّ ربّاً فلن أرى أدينُ إلهاً غيرَك الله ثانيا

أدينُ لربّ يستجابُ ولا أرى أدين لمن لم يسمعِ الدهرَ داعيا

ثم يتصدّى للمشركين من الناس ويجادلهم، ويقدّم لهم الأدلة البيّنة التي تعجز الأنا عن مقاومتها مهما كانت قوتها، ولا ينكرها إلا كافر ممعن في الكفر ومصرّ عليه؛ لأنها تتفق مع الآيات القرآنية التي تتحدث عن وحدانية الله وقدرته على الخلق، وتدبير الليل والنهار. يقول أمية([43]):

إنَّ آياتِ ربّنا بيّناتٌ ما يماري فيهن إلا الكفورُ

خلق الليلَ والنهار فكلَ مستبينٌ حسابُه مقدورُ

كلُ دينٍ يوم القيامةِ عند ذالله إلا دينَ الحنيفةِ بورُ

فالشاعر في خطابه لا يلتفت إلى التفنّن في العبارة، أو الإبداع في الخيال، فغايته ليست فنية بل فكرية خالصة، ومن الآيات التي اقتبس منها أمية أفكاره، ولا سيما في البيت الأخير قوله تعالى: ﴿**مَن يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ**﴾ آل عمران:٨٥.

وكان يركّز في وعظه على البعث يوم القيامة، فذكر الثواب والعقاب ووصف الجنة والنار، معتمداً التنويع في الأساليب بين الترغيب والترهيب، يقول أمية([44]):

ويوم موعدِهم أن يُحْشروا زُمَراً يوم التغابن إذ لا ينفعُ الحَذَرُ

فمنهمُ فَرِحٌ راضٍ بمتعتِه وآخرون عصوا مأواهمُ السَقَرُ

وآخرون على الأعرافِ[45] قد طمعوا بجنةٍ حفّها الرمانُ والخضرُ

يُسقون فيها بكأسٍ لذةٍ ألفٍ صفراءَ لا قرقفٌ فيها ولا سكرُ

مزاجُها سلسبيلٌ ماؤها غَدِقٌ عذبُ المذاقةِ لا ملحٌ ولا كَدَرُ[46]

منهم رجالٌ على الرحمن رزقُهم		مكفّرٌ عنهم الأحناثُ والوزرُ

ودعا الناس إلى الزهد في الحياة الدنيا والإعراض عن ملذاتها، وقَرَن ذلك بالتذكير الدائم بالموت، وتدل أشعاره على رجل عقلاني، يقف من الأشياء موقف المتأمّل والمُفكّر، ويكاد يرتقي إلى مرتبة الفيلسوف الذي يريد إيجاد إجاباتٍ دقيقة لبعض الأسئلة، ويحاول إعطاء تفسير للمشاكل الكونية، فهو يحمل همّاً وجودياً كبيراً. يقول أمية(٤٧):

وقد علمْنا لو أن العلمَ ينفعُنا		أن سوف يلحقُ أخرانا بأولانا

وقد عجبتُ وما بالموت من عَجَبٍ		ما بالُ أحيائنا يبكون موتانا؟

ومن الجديد الذي أحدثه أمية في شعره أنه نهج نهجاً قصصياً ممتعاً، غايته ألا يغترّ الإنسان بزخارف الدنيا ومتعها، وأن يرتفع عن كل ذلك ما دام ليس مُخلّداً على هذه الأرض. ومثاله: هذه الحكاية عن (غُفْر: ولد الظبي) له أم رؤوم، كانت تحنو عليه وتحوطه بعنايتها، وتبيت الليل ساهرة عليه، وهي متوجسة خائفة من كل صوت أو نَبأة، وقد وضعته في قمة جبل شاهق لِتضمن له البقاء. وكشف الشاعر عن عاطفة الأمومة القوية المُتجسدة عند هذه الظبية أنها تمنت – لشدة ما تعاني من قلق عليه – أنَّها لم تلده. يقول أمية(٤٨):

وما يبقى على الحدثان غُفْرٌ		بشاهقةٍ له أم رؤومُ(٤٩)

تبيت الليلَ حانيةً عليه		كما يَخْرَمّسُ الأرْخُ الأطومُ

تصدّى كلما طلعتْ لنشزٍ		وَوَدَتْ أنها منه عقيمُ

كما حفل شعره بكثير من قصص الرسل والأنبياء الذين دعوا الناس إلى عبادة الله، ومن ذلك تلك الأشعار التي تحدثت عن نوح عليه السلام، والطوفان الذي هلك فيه العصاة، ونجا فيه المؤمنون، يقول أمية(٥٠):

جزى اللهُ الأجلُّ المرءَ نوحاً		جزاءَ الخيرِ ليس له كذابُ

بما حملتْ سفينتُه وأنجتْ		غداة أتاهُمُ الموتُ القلابُ

وفيها من أرومتِنا عيالٌ		لديه لا الظِماءُ ولا السّغابُ

ثم كان الطوفان، وتَفتّحت أبواب السماء بالماء، وتفجّرت عيون الأرض، وعمّ السيل، وأشرف نوح من فوق ظهر السفينة، فرأى ابنه، وكان قد اعتزل أباه وآوى إلى جبل يعصمه من الماء، ولكنه هلك فيمن هلك، ولما انتهى الطوفان، وابتلعت الأرض الماء، رست السفينة على جبل الجوديّ، وهبط نوح ومن معه إلى الأرض. والغاية من قصة نوح عليه السلام والطوفان؛ ليست التفنّن في نظم الشعر وابتكار طرائق جديدة، بل دعوة الناس إلى أخذ العبرة من الأمم السابقة. فحديث أمية عن الطوفان يدل على أنه كان على علم بأخبار الأقدمين وقصصهم، ولاسيما الأنبياء والرسل، مستفيداً بذلك من أصحاب الديانات السماوية، ويُذكر أن اليهودية كانت منتشرة في اليمن ويثرب وبعض قرى وادي القُرى. كما كانت المسيحية منتشرة في اليمن وفي نجران بالذات، ومنهم أصحاب الأخدود، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك ﴿**إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الأُولَى**﴾ ﴿**صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى**﴾ الأعلى:١٨، ١٩. وربما استفاد أمية من القرآن الكريم، إذ كان المشركون يستمعون إلى القرآن ليعرفوا حقيقة الإسلام، وذكر الزمخشري[٥١]: أن الوليد بن المغيرة المخزومي كان من ألدّ أعداء المسلمين، استمع إلى آيات من الذكر الحكيم، فتوجّه إلى نفر من قريش قائلاً:" والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن، إن له لحلاوة، وإن عليه لطُلاوة، وإن أعلاه لَمثمر، وإن أسفله لمُغدق، وإنه يعلو وما يُعلى عليه".

إنَّ أشعار أمية بن أبي الصلت الخارجة عما هو مألوف في الشعر الجاهلي؛ أي تلك التي تتحدث عن خلق السموات والأرض ونشأة الكون، والموت والفناء والبعث والنشور والحساب، وتروي سير الأنبياء بتفاصيل لا تفترق كثيراً عما جاء في القرآن الكريم. أثارت جدلاً طويلاً دفع الكثير من المُحدثين إلى الشك في صحة الأشعار المنسوبة إليه، والادّعاء بأنها من صنع القصاص والمفسرين المسلمين بعد الإسلام، وأول من أشار إلى ذلك المستشرقون أمثال: تور أندريه (TorAndrae) الذي قال: إن شعر أمية نَظْم جمع القصاص فيه ما استخرجه المفسرون من مواد القصص القرآني، وذهب ف. شولتهس إلى إن شعره منحول أيضاً وخاصة القصائد التي نهج فيه نهجاً دينياً، ويَعتقد أنها نحلت منذ القرن الأول الهجري وهي من صنع المسلمين المُتدينين في مكة والمدينة. أما كليمان هوار فخالفهم الرأي وقال: إن هذا الشعر الذي ينسب إلى أمية صحيح([٥٢])، أمّا كارلو نالينو([٥٣]) فقال: لا شكّ في كون كثير من أشعاره مُختلقة، لا سيّما المروية في كتاب (البدء والتاريخ لمُطهّر بن طاهر المقدسي) ، ولاسيما الأشعار المملوءة بالعبارات والألفاظ القرآنية؛ مع أنَّ المشهور أنَّ أمية لم يسلم.

ومهما اتّسعت دائرة الشك إلا أن الحقيقة تبقى، ويبقى معها ذلك التوجّه الديني العالي عند أمية، والرغبة في أن يعمّ الخير المطلق الناس جميعا في كل زمان ومكان، ومعرفة الخير وحدها لا تكفي، بل لا بُدَّ من لزومه وتوجيه الناس إليه، وحثّهم على تجنّب الشرّ، فتَرْك الشرّ هو ضرب من عمل الخير، "وعمل الخير لا يَضيع فهو محفوظ في أهله، وإن ضاع أجره عند الناس فلن يضيع عند الله، ولذلك لا يجوز أن يكون جحود الناس عاملاً على صرف المرء عن عمل الخير "([٥٤]).

نتائج البحث:

في نهاية الحديث عن غرض الحكمة يمكن تسجيل النتائج والملاحظات الآتية:

١. تناول الشعراء في حكمهم معظم الفضائل المتعارف عليها، وكانت معاني الحكمة غير محدودة وهي خارج دائرة الحصر، وليس صحيحاً ما ذهب إليه شوقي ضيف من أن معاني الحكمة محدودة، "وكأنما اصطلحوا على معانٍ بعينها، فالشعراء لا ينحرفون عنها يمنة ولا يسرة "([٥٥]). ويرجع هذا الرأي إلى عدم الإحاطة بجميع الأشعار التي احتوت الحكمة في ثناياها.

٢. كان الشعراء في الأمم المُتبدية يقومون بما يقوم به الفلاسفة والعلماء في الأمم المُتحضرة، ومن المعروف أن العرب في الجاهلية لم يعرفوا العلم والفلسفة؛ لأن حياة البداوة المضطربة لا تتيح لأصحابها بأن يكون لهم علم مُنَظم، فالعلم وليد الاستقرار والحضارة. لذلك قام الشعراء بهذه المهمة، فرسموا للناس المُثل العليا وفتحوا أعينهم على الحقيقة.

٣. تدلَّ حكمهم على أنَّهم أهل ذكاء ونجابة، وخبرة واسعة في الحياة، وعلم دقيق بأخلاق الناس وطباعهم، كما تدل على صفاء أذهانهم، وصدق نظرتهم في الطبيعة والإنسان، وهي من ناحية ثانية تدل على عقلية مُتأملة راقية لكنها لم تصل إلى مستوى التفكير الفلسفي العميق، بل هي فلتات الطبع وخطرات الفكر([٥٦]).

٤. لم يكن غرض الحكمة غرضاً محورياً في القصيدة الجاهلية، ولم يكن جزءاً أساسياً من أجزائها التقليدية الثابتة، بل كان يأتي في ثنايا القصائد وفي أماكن متفرقة، فقد يأتي في المطالع أو في الوسط للفصل بين الشيء

وأنواعه، إلا أنّ المكان الأكثر احتواء للحكمة هو نهايات القصائد، وإتيانها في النهاية هو تكريم لها وإكبار لشأنها، لأن النهاية هي قاعدة القصيدة، وآخر ما يبقى منها في الأسماع، ويشترط فيها أن تكون مُحكمة، أي لا يمكن الزيادة عليها، وعلى الشاعر أن يجوّد خاتمة كلامه؛ لأنه أبقى في السمع وألصق بالنفس، يقول ابن رشيق القيروانيّ:" إذا كان أول الشعر مفتاحاً له، وجب أن يكون الآخر قفلاً عليه "([٥٧]).

٥. لاحقاً للنقطة السابقة/ وهي عدم استقلالية الحكمة، فقد احتفظت المصادر الشعرية بعدد من المقطوعات والقصائد المُخصّصة بكاملها للوعظ والإرشاد، وهناك شاعر مثل أميّة بن أبي الصلت كانت الحكمة عنده في المقام الأول، ولم تكن مجرد خواطر عابرة.

٦. كان تأثّرهم بالمعاني الإسلامية حاضرا، ولكنّه محدود، فلم تُمثل حِكمهم تيارا إسلاميا واضحاً، حتى شعر أميّة بن أبي الصلت لا يُستثنى من هذا الحُكم؛ لأنَّ الشاعر لم ينظمه بسبب اعتناقه الإسلام ، وتَمثّله لمعانيه، بل جاء من تحنّفه الذي تربّى عليه، واستقرّ في أعماقه.

وأخيراً؛ فإنَّ الحكمة التي نطق بها شعراء الجاهلية خالدة باقية على مرّ الأزمان، وساعد على بقائها تلك اللغة السمحة السهلة السلسة التي صيغت بها، والمعاني البسيطة الواضحة البعيدة عن التكلف والمبالغة، والغالب على هذه المعاني الأسلوب التقريريّ المباشر؛ لأنَّها تسعى إلى تعرية الحقيقة، وتقديمها بصورة واضحة لا تحتمل التأويل، لكنها لا تخلو من بعض الصور الشعرية المستوحاة من البيئة المترامية حولهم، وهي صور حيّة متحركة بعيدة عن الجمود، وحكمهم خالدة لأنَّها طبعت بطابع إنسانيّ عام، وتخلّصت من تلك النغمة الفردية التي سيطرت على القصيدة الجاهلية. والشاعر الحكيم إنسان هادئ متزّن، لا ينفعل بشدة أمام فرح أو حزن، ولا يُخرجه شيء عن طوره، بل يقف مُفكراً في الحياة والأحياء وقضايا البشرية العامة، ويستخرج من تفكيره العظات والعبر. وهو إنسان يتجاوز الخاص إلى العام، والجماعة عنده أهم من الفرد، فيأتي بمعانٍ تهمُّ وتفيد الجماعة، وقد كرّمته الجماعة بأن ردّدت أشعاره، وحفظتها في قلبها وذهنها من الضياع، فكانت أقوى من النسيان.

الهوامش:

[١]- السيوطي، جلال الدين (٩١١ هـ)، شرح شواهد المغني، لجنة التراث، بيروت، د.ت. ٢٣/١.

[٢]- ابن سلام، أبو عبد الله محمد بن سلام (٢٣١ هـ)، طبقات فحول الشعراء، تحقيق محمود محمد شاكر، مطبعة المدني، القاهرة، د.ت. ٢١٥/١.

[٣] - أبو عبيدة، معمر بن المثنى (٢٠٩ هـ)، الديباج، تحقيق عبد الله بن سليمان وآخر، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٩١. ص١٠.

[٤] - ابن سلام، طبقات فحول الشعراء ٢٥٩/١.

[٥] - الجاحظ، عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ)، الحيوان، تحقيق عبد السلام هارون، مطبعة مصطفى البابي الحلبي بمصر. د.ت. ٣٨٠/٤-٣٨٢.

[٦] - المصدر نفسه، ٣٨٠/٤.

[٧] - أبو الفرج الأصفهاني، علي بن الحسين (٣٥٦ هـ)، الأغاني، دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٥، ١٢٢/٤.

[٨]- أبو محجن الثقفي، حبيب بن عمرو (٣٠ هـ)، ديوان أبي محجن، قدّم له صلاح الدين المنجد، ١٩٧٠. ص١٤. ذكر عبد القادر البغدادي، خزانة الأدب ٢٠/١، أنه استفاد من ديوان أبي محجن صنعة ابن السكيت.

[٩]- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٩٤/٦. (أخبار حماد الراوية ٧٠/٦-٩٥).

[١٠]- الجاحظ، الحيوان، ٣٨٠/٤.

[١١]- ابن رشيق القيرواني، أبو علي الحسن (٤٥٦ هـ)، العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، تحقيق محي الدين عبد الحميد، دار الجيل، ط٥، بيروت، ١٩٨١. ٨٨/١.

[١٢]- ابن رشيق القيرواني، العمدة، ١١٨/١ وما بعدها.

[١٣]- عبد الحليم حفني، شعر الصعاليك منهجه وخصائصه، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٧. ص٣٧٨.

[١٤]- بطرس البستاني (١٨٨٣ م)، أدباء العرب في الجاهلية والإسلام، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٧٩. ص٢٨.

[١٥]- ابن منظور، أبو الفضل محمد بن مكرم (٧١١ هـ)، لسان العرب، دار صادر ط٣، بيروت، مادة حكم.

[١٦]- ابن رشيق القيرواني، العمدة ١٨٧/١.

[١٧]- بروكلمان، كارل، تاريخ الأدب العربي، دار المعارف بمصر، ١٩٥٩. ١٢٩/١.

[١٨]- بطرس البستاني، دائرة المعارف العربية ١٣٢/٧.

[١٩]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، دار الكتاب العربي ط٥، بيروت، ١٩٩٩. ص١٢٦.

[٢٠]- يحيى الجبوري، الشعر الجاهلي خصائصه وفنونه، مؤسسة الرسالة ط٥، بيروت، ١٩٨٦. ص٤٠٣.

[٢١]- السيوطي، شرح شواهد المغني، ٢٣/١.

[٢٢]- ابن رشيق القيرواني، العمدة، ١٨٧/١.

[٢٣]- أبو الفرج الأصفهاني، الأغاني، ٢٠٢/١٣.

[٢٤]- المصدر نفسه، ٢٦٧/١.

[٢٥]- ديوان أبي محجن الثقفي، ص٥٢.

[٢٦]- أخرجه أحمد بن حنبل عن أبي هريرة، في "المسند" ٤٩٦/٢، وسنده صحيح.

[٢٧]- ياقوت الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله (٦٢٦ هـ)، معجم الأدباء، دار المأمون القاهرة، ١٣٥٥ هـ. ٢٣/١٦.

[٢٨]- إبراهيم ملحم، بطولة الشاعر العربيّ القديم، دار الكندي ط١، إربد، ٢٠٠١. ص٢٣٠.

[٢٩]- يوسف خيّاط، معجم المصطلحات العلمية والفنيّة، بيروت، د.ت. ص٢٤.

[٣٠]- المبرّد، أبو العباس محمد بن يزيد (٢٨٥ هـ)، الكامل، تحقيق حنا الفاخوري، دار الجيل ط١، بيروت، ١٩٩٧. ج٣٤٦/٢.

[٣١]- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (٢٣١ هـ)، ديوان الحماسة، دار القلم، بيروت، د.ت. ص٤٦-٤٩، وهي قصيدة طويلة قالها يعظّ ابنه بدراً.

[٣٢]- الجاحظ، عمرو بن بحر (٢٥٥ هـ)، البيان والتبيين، دار الكتب العلمية ط١، بيروت، ١٩٨٨. ٢١٤/٣.

[٣٣]- كمال اليازجي، في الشعر العربيّ القديم، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣. ص٣٩.

[٣٤]- محمد ابراهيم حُوّر، النزعة الإنسانية في الشعر العربيّ القديم، مكتبة المكتبة ط٢، العين، ١٩٨٥. ص٢٠.

[٣٥]- التبل: الأخذ بالثأر، يلوى: يماطل، الغريم: المدين.

[٣٦]- أبو تمام، حبيب بن أوس الطائي (٢٣١ هـ)، الوحشيات، تعليق عبد العزيز الميمني، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣. ص١٢٠.

[٣٧]- محمد حوّر، النزعة الانسانية في الشعر، المقدمة.

[٣٨]- المرزباني، أبو عبيد محمد بن عمران (٣٨٤ هـ)، معجم الشعراء، تصحيح ف. كرنكو، دار الكتب العلمية ط٢، بيروت، ١٩٨٢. ص٣٦٨.

[٣٩]- وليد قصّاب، وظيفة الشعر في النقد العربي القديم، مجلة التراث العربي السورية، عدد ٦٧، ١٩٩٧.

[٤٠]- جورجي زيدان (١٩١٤ م)، تاريخ آداب اللغة العربية، دار الهلال. د.ت. ١٣٦/١.

[٤١]- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ٢٦٢/١.

[٤٢]- بهجة الحديثي، أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، مطبعة العاني، بغداد، ١٩٧٥. ص٣٦٨.

[٤٣]- المصدر نفسه، ص٣٣٧.

[٤٤]- المصدر نفسه، ص٢٢٧.

[٤٥]- الأعراف: سور بين الجنة والنار يوقف عليه قوم إلى أن يقضي الله تعالى بين خلقه، مع اختلاف فيمن يقام عليه.

[٤٦]- معنى هذا البيت مأخوذ من قوله تعالى ﴿قَوَارِيرَ مِن فِضَّةٍ قَدَّرُوهَا تَقْدِيرًا﴾ ﴿وَيُسْقَوْنَ فِيهَا كَأْسًا كَانَ مِزَاجُهَا زَنجَبِيلا﴾ الإنسان: ١٦، ١٧.

[٤٧]- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص٣٠٣.

[٤٨]- ابن سلام، طبقات فحول الشعراء، ٢٦٤/٢.

[٤٩]- الغفر: ولد الظبي. الحدثان: مصائب الدهر ويريد الموت. يخرمس: يصمت. الأرخ: ولد البقرة. الأطوم: الذي يضم شفتيه فلا يتكلم. النشز: المرتفع من الأرض.

[٥٠]- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص١٥٧.

[٥١]- الزمخشري، محمود بن عمر (٥٣٨ هـ)، الكشّاف، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٩٧. ٦٥١/٤.

[٥٢]- أمية بن أبي الصلت حياته وشعره، ص ١٢٢. لم يثبت هوار صحة شعر أمية لغاية أدبية خالصة، بل ليقول إنه مصدر من مصادر القرآن الكريم استفاد منه محمد (ص).

[٥٣]– نالينو، كارلو (١٩٣٨)، تاريخ الآداب العربية، دار المعارف بمصر ط٢، د.ت. ص٩٤.

[٥٤]– كمال اليازجي، الشعر العربي القديم ،ص٥٢.

[٥٥]– شوقي ضيف، العصر الجاهلي، دار المعارف بمصر ط٧، د.ت. ص٢٢٠.

[٥٦]– استفادت هذه الملاحظات من كتابين هما:

أ. عبد الحميد الجندي، زهير بن أبي سُلمى شاعر السلم في الجاهلية، المؤسسة المصرية العامة، القاهرة، د.ت.

ب. محمد عبد المنعم خفاجي، الحياة الأدبية في العصر الجاهلي، دار الطباعة المحمدية ط٢، القاهرة، ١٩٥٢.

[٥٧] – ابن رشيق القيرواني، العمدة، ٣٢٩/١.

Hair between wisdom and ignorance of Islam (Poets of the Taif model)

Dr. Khitam S. Salman
Assistant Professor Arabic Language Department
Birzeit University – Palestine

Abstract:

A piece of wisdom is a contemplative profound look into life and its issues and people and their morals, goals and destinies. It is a call to uncover the truth and present a typical picture of the values of truth, goodness, beauty and lesson-learning. Poets, since the pre-Islamic paganistictimes, have addressed these humane meanings without which they would not be glorified since "Arabs do not consider a poet laureate unless he originates some wisdom in his poetry". However, wisdom in poetry has not been an independent purpose as was the case for praising, commiseration, satire, flirtation... etc. It was used to be originated casually where the nature of the theme requires it.

With the advent of Islam, veteran poets continued decorating their poems with wise implications. Islam had a tangible impact on the meanings and contents addressed by those veteran poets, and on using poetry to fight paganisticideology, and serving Islam. Such wisdom has been maintained eternal as poets of wisdom exceeded the individuality to popularity, so he was honored by the people memorizing his verses and communicating them from generation to another.